الحرب الإسرائيلية ومستقبل المحاور المتصادمة في المنطقة

د.لقاء مكي

من غير المقدر أن تنتهي الحرب الراهنة في المنطقة بتسويات جزئية، تحفظ للجميع بقاءهم، وتوفر فرصة تعويض أو إصلاح ما خسروه أو فقدوه. هذه الحرب هي كما تبدو حتى الآن صفرية، تريد لها إسرائيل أن تنتهي بمعادلة غالب ومغلوب، وهي تفترض أنها ستكون الغالب الذي يأخذ كل شيء، فيما يخسر خصومها كل شيء، وهو ما يعني شرق أوسط مختلف تماما عن كل ما نعرفه اليوم حسب الوعيد الذي اطلقه نتنياهو أكثر من مرة.

كانت هذه الحرب متوقعة إلى حد بعيد، سواء بهذه الصورة وأطرافها، أو بشكل آخر، لكن التوتر عالي المستوى الذي يتصاعد منذ عدة سنوات، بسبب الصدام بين المشروعين الإسرائيلي والإيراني، كان يؤشر حتمية الوصول إلى لحظة الانفجار.

يتنافس المشروعان على منطقتنا منذ أكثر من عقدين، لكن النزاع تطور بعد غزو العراق ٢٠٠٣، بعدما حصلت إيران على مكاسب ونفوذ مباشر ورئيسي في العراق، ثم بعد تدخلها في سوريا بدءا من العام ٢٠١١ لدعم نظام الرئيس بشار الأسد في مواجهة شعبه. لكن النزاع ما لبث أن تحول إلى تماس مباشر بعد القضاء على داعش عام ٢٠١٨، حينما عادت التناقضات للظهور بين المتحالفين ضد التنظيم، وعمل كل من المحورين على تعظيم مكاسبه على حساب الآخر، فحصلت الأزمة الخليجية عام ٢٠١٧ مما سمح لكل من تركيا وإيران بالتدخل المباشر لمساندة قطر ضد خصومها العرب ، وكان ذلك مكسب للبلدين، ولا سيما بالحضور المباشر والفعال في السياق الجيوسياسي لمنطقة الخليج، وفي مطلع العام ٢٠٢٠ خلال ولاية الرئيس الأسبق دونالد ترامب، طرحت الولايات المتحدة خطة ترامب للسلام أو ما عرف بصفقة القرن، وجرى الشروع به من خلال (الاتفاقات الابراهيمية) مع كل من الامارات والبحرين ولاحقا المغرب.

كانت هذه التطورات التي ورثتها إدارة الرئيس جو بايدن، استهلال مباشر للتصادم بين المحور الإسرائيلي، وبين المحور الإيراني الذي عرف بمحور المقاومة، واخذ قيمته المعنوية المؤثرة من انضمام حركة حماس إليه بعد التغييرات التي حدثت في قيادتها في فبراير ٢٠١٧ بتولي الراحل إسماعيل هنية رئاسة مكتبها السياسي وقيادة يحيى السنوار للحركة في قطاع غزة. في ظل هذه المتغيرات كان شكل المحورين وأهدافهما قد وصل لمرحلة تصادم جيوسياسي واضح المعالم، وأصبح تحول الصراع من سياسي ودعائي إلى عسكري محتما، مع وصول التطبيع بين إسرائيل والمملكة العربية السعودية إلى مراحلها التنفيذية مع تأكيدات ولي العهد السعودي الأمير محمد بن سلمان لقناة فوكس نيوز في سبتمبر ٢٠٢٣ أن «السعودية تقترب من التطبيع مع إسرائيل، لكن القضية الفلسطينية تظل مهمة للمفاوضات». حدثت هجمات السابع من أكتوبر في هذا السياق المضطرب لوقف بناء جدار التطبيع الذي كانت حركة حماس تعتقد أنه يمكن أن يجعل من القضية الفلسطينية (أثرا من الماضي)، وهو أمر أكدته إيران لاحقا على لسان المرشد علي خامنئي الذي اعتبر أن (طوفان الأقصى) قد «أفشل الخطة الكبرى لمنطقة الشرق الأوسط».

في النهاية توقف مشروع التطبيع مع السعودية، وأصبح مرهونا بنتائج هذه الحرب وتداعياتها، أما إسرائيل فتعاملت مع هجوم السابع من أكتوبر على أنه حرب وجودية أصابتها في الصميم، وحطمت جوهر قدرتها الردعية، وهو ما أتاح لبنيامين نتنياهو وحكومته اليمينية الأكثر تطرفا في تاريخ إسرائيل، أن تستخدم الذعر الداخلي والتعاطف الغربي، لتشرع في حرب تدميرية ضد الشعب الفلسطيني في غزة، بهدف معلن هو القضاء على حركة حماس.

إيران.. الهدف الرئيسي

خلال العقدين الماضيين، بنى نتنياهو سرديته السياسية الداخلية على أساس اعتبار أن إيران هي العدو المركزي الذي يحرك كل الأذرع المعادية لإسرائيل، وقد نما هذا التصور لهوية العدو في المخيال الإسرائيلي بانتظام مع تنامي أهداف كل من المحورين، ومع توسع المجال الحيوي لإيران في داخل الجغرافية العربية المجاورة لإسرائيل، لا سيما فيما يتعلق بحزب الله الذي راكم فائض القوة بشكل كبير ومتسارع منذ حرب يوليو ٢٠٠٦، وتحول بمرور الوقت إلى رأس رمح للمشروع الإيراني يهدد إسرائيل بشكل مباشر وحقيقي، ولذلك، فلم يكن صعود اليمين الإسرائيلي المتطرف مفاجئا في ظل استمرار تكريس سردية التهديد الإيراني، ووصوله إلى الترابط مع حركة حماس في قطاع غزة.

وكان من الطبيعي أن يستعيد نتنياهو كل هذه المخاوف في الوعي الإسرائيلي مع بدء الحرب على غزة بعد السابع من أكتوبر ٢٠٢٣، ولذلك فهو وجد مصاعب في إقناع جزء من الشارع الداخلي باستمرار الحرب ضد حماس، لكنه لا يجد نفس المشكلات في كسب تأييد الشارع والمعارضة فيما يتعلق بالحرب ضد حزب الله وإيران.

بالنسبة لإسرائيل فإن حزب الله يعتبر هدفا رئيسيا راهنا، لكنها ما زالت تعتبر أن (القضاء) على المحور الإيراني لا يمكن أن يتم من دون ضرب مركز المحور في طهران، من دون أن تتبدى حدود هذا الهدف ومدياته، وما إن كان يشمل حربا واسعة مع إيران يمكن ان تتحول إلى حرب شاملة تشمل الشرق الأوسط.

تدرك إسرائيل أن أي حرب مع إيران دون تحييد حزب الله، يعني التعرض لمخاطر جسيمة يشكلها هذا الحزب، بقوته المتراكمة، وقدراته على تهديد كبرى المدن الإسرائيلية، وربما اقتحام مدن الجليل وتشكيل خطر (وجودي) يفوق كثيرا ما حدث يوم السابع من أكتوبر، ولذلك كانت الحرب على لبنان، مهمة جوهرية يتوجب القيام بها في الخطة الإسرائيلية، قبل التعامل مع الهدف الأساسي في إيران.

آفاق الحرب وتداعياتها

خلال نحو شهر منذ بدء الحرب على لبنان، حققت إسرائيل أهدافا كبيرة بالقضاء على معظم قيادات حزب الله، وابرزهم أمينه العام السيد حسن نصر الله، لكن هذا (النجاح) السريع، لم يحقق لإسرائيل حسم النصر واستكمال مهمة استعادة الردع الذي لم يعد قائما كما كان قبل السابع من أكتوبر، حيث مازال حزب الله يخوض معارك برية ناجحة نسبيا في جنوب لبنان، وما زال ينجح في إطلاق الصواريخ والطائرات المسيرة، على المدن الكبرى وابرزها تل أبيب وحيفا، وهو بالطبع يزيد من التعقيدات أمام إسرائيل، ويمكن أن يطيل في مهمتها بلبنان، ويؤدي بالتالي إلى زيادة الضغوط الخارجية على نتنياهو للقبول بتسوية على أساس القرار ١٧٠١.

من المستبعد في الظروف الحالية، أن تقبل إسرائيل بأية تسويات تتضمن بقاء حزب الله كقوة عسكرية ضاربة، فهي تدرك أن الحزب يمكن أن يعوض ما خسره خلال الأسابيع الماضية، كما حصل بعد حرب ٢٠٠٦، فذلك لن يكون سببا مستمرا للقلق الإسرائيلي في المستقبل فقط، لكنه يعني توقف الهدف الإسرائيلي الذي أعلنه نتنياهو حول (تغيير الشرق الأوسط)، بل ويمكن أن يتسبب بسقوطه سياسيا أيضا.

من هنا، فالحرب على لبنان مرشحة للاستمرار، وفي غضون ذلك، فإن إسرائيل يمكن أن تقوم بضرب إيران بطريقة قوية، لكن محسوبة ومن دون أن تقود إلى رد إيراني جديد، كي تستمر بالتفرغ للقتال في لبنان. مثل هذه المشاغلة مع إيران، لن تكون غير خطوة مرحلية، من المقدر أن تستكملها إسرائيل في حال نجاحها في تحقيق أهدافها ضد حزب الله، وهذه المرة، ستكون الأهداف الإسرائيلية مختلفة، وتتجاوز كثيرا حدود ضربات نوعية لإيران، إلى محاولة تغيير النظام السياسي هناك، بالتعويل على إضعاف النظام، وتدبير نوع من الحرب الداخلية مع قوى معارضة في الأطراف، قد تفضي إلى اسقاط النظام في طهران. وبالطبع فمثل هذا الطموح الإسرائيلي، قد يواجه تعقيدات جدية من قبل إيران، التي تمتلك بدورها خيارات كثيرة للرد والمواجهة، سواء من خلال القوة الصاروخية المؤثرة التي تمتلكها وضرب مصادر الطاقة في الخليج مباشرة أو من خلال أذرعها في العراق واليمن، أو من خلال تدخل قوى دولية مهمة مثل روسيا وربما الصين وكوريا الشمالية، في حال تعرض النظام في طهران لخطر داهم.

وفي كل الأحوال، فإن ما تحقق من الحرب حتى الآن تسبب بتدمير جسيم لقطاع غزة، وإضعاف حزب الله، واجباره على القبول بالانسحاب إلى شمال الليطاني حسب رئيس الوزراء اللبناني، ومثل هذه النتائج لو توقفت الحرب عندها، تكون قد تسببت بالتأكيد في نتائج صعبة للمحور الإيراني، لكنها لن تنهيه، وهو سيبقى بعد ذلك، ويمكن أن يستمر كمحور جيوسياسي أقل تأثيرا، لكن في المقابل، تسببت الحرب ذاتها في ضرر سياسي واضح لمحور التطبيع المقابل، ومن المرجح أن تتأخر كثيرا في تنفيذ مخططها السياسي والاقتصادي، لا سيما وأن القضية الفلسطينية التي دخلت مرحلة شديدة التوتر والضبابية، ستظل معيار أي قدرة على تهدئة الأوضاع في الشرق الأوسط.

«تعاملت إسرائيل مع هجوم السابع من أكتوبر على أنه حرب وجودية أصابتها في الصميم، وحطمت جوهر قدرتها الردعية، وهو ما أتاح لحكومتها الأكثر تطرفاً في تاريخ إسرائيل أن تستخدم الذعر الداخلي والتعاطف الغربي لتشرع في حرب تدميرية ضد الشعب الفلسطيني»